فصل

في فتح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ. .

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر، وهي تلة شامخة من أعلى التلل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينما هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر، والكفر صاغر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الاعمال على غرس الدين قليج، وكان هذا قليج قد تسلم كفر دبين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مخيمه يوم السبت، وهو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهدّ أركانها، ومابرح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشغر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

- ٨٦٤٥ -

مـن الحصون سـوى ثلاثـة: القصير، وبغراس، ودربسـاك، وقد أصبحـت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

obeikandl.com

فصل

في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)[٧٨] ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه،ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدوّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابنة لها، وجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدوّ، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة ثمنيه الآمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدّون مواهبه مالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله،وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطىء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)(٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسبحوا، وثقلت به موازين أعمالهم،فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ماسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولاممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لما ملكت حصون انطاكية
يئس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كل مثلث متكبر
بموحد متواضع ومكبر
برزت إلى برزيه عزمتك التي
مدّت يداً عن مطلب لم يقصر

- ٨٦٥٠ -

فتنـــاولتـــه بـــأيـــدهـــا مـــن بـــاذخ
في الافـــــق ذي مثـــــل يـــــروع مسير
فـــانهض لصـــور فهـــي أحســـن صـــورة
في هيكـــل الـــدنيـــا بـــدت لمصـــوّر
مـــاســـور صـــور عـــاصـــم منـــه وهـــل
ســـور المعـــاصـــم عـــاصـــم لمســـوّر

obeikandl.com

فصل

في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثاث وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت باخراج حصونها من ولايتها أرواحها، وقد بقيت غرضاً للعسكر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بالنفس والبلد، والأمل والولد، ونحن لاراحة لنا إلا في هذا التعب، ولاأرب لنا في غير هذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغزى لنا غير الغزاة، ومانرجو من الله إلا انجاز العدات في جميع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبان صباح الموحدين وأبينا أمانهم إلا أن يفدوا نفوسهم، وينزعوا من الحرب لبوسهم، ويخلعوا بأسهم ويلبسوا بوسهم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسة آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شـدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطـاكية من دربسـاك، وكـانـت كثيرة العـدة والرجـال، فنـزل العسكـر في مـرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنـا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانـب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجـم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قـال: وأنا ممـن كـان في اليـزك في بعض الأيـام، لـرؤيـة البلد وزيـارة حبيب النجـار المدفون فيه عليـه السلام. ولم نزل نقـاتل بغراس مقـاتلة شديدة حتـى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقـي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقـال العماد: ولما فتحـت دربسـاك لم يبـق لنـا همة إلا بغـراس، وقـد شارف رجـاء أكثر النـاس في فتحه اليـاس، وهو حصـن حصين، ومكان مكين، هو للداويـة وجار ضباعها، وغـاب سباعها، وهو بقـرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالـدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدين دينـه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولايبرحون بـازاء أنطاكية صفـا يرمون، لأهلهـا فتحا وحتفاً يتنـاوبون على سبيل اليـزك، ويدعـون العدا إلى المعترك، وليـس بينهما إلا النهر، فصعـد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصـب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقـل إليها أحـواض الماء ورواياه، وبـث في النواحـي سراياه، وفـرق على الجميع عطـاياه، وأقمنـا عليه اسبـوعاً نجـري إليه مـن كل منجنيـق من فيـض الحجارة ينبـوعاً، ونحـن نفكر فيما يكـون، ومتى تتـم الحركة وفيـم السكون، وهـذا بيكار يطـول، وتعب لايزول، إذ رأينـا باب الحصـن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بما فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دربساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليما ن بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكانت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد باع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلترم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ماحسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك سنة سبع أو ثمان وثمانين، وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشققان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوّقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العماد: وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر الغريبة، وأتحفهم بالتحف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جانب حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطها إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيرة. ثم سار منها على طريق المعرّة وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فتبرك بزيارة الميت والحي، ثم وصل إلى حماة فنزل بقلعتها، ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا، وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا، وعلى معاضدته مواظبا، وماحضر معنا على بلد أوحصن إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السلطان جالساً، ولنظره عليه حابساً ، وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح، فلما تولاها تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها، فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعة، وسر بما رأى من الحصانة والرفعة، ووقف الملك المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه، وأصبح السلطان راحلاً، ولم يقم بحمص وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامه مورده ومصدره، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غير مأمون، والعمر غير مضمون، وللفرض أوقات وللدهر آفات، وبقيت مع الكفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختل أمرنا المصون، لاسيما صفد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

واهية السداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولامكث، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

obeikandl.com

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته، وأخذ عدوّه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عيذاب، ولما نبابه المنزل منها، وقل عليه المرفق فيها ، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، وحصل لمن جرت على يده أجرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها، وقد رغب في خطابة الكرك، وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

فصل

في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: ماننام حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقال العماد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت

الموقوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانت في عين الاسلام قذى، لايتوقع منها على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهل الله صعبها، وأوطأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مذعنين، واستسلموا مسلمين، وتبرؤوا من حصنهم، ونزلوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم للإستمهال في نقل متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد، وقالوا: متى فتحت صفد فإن كوكب لاتمتنع، وأملنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرد لها نجدة لعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا، فسيروا مائتي رجل فتفرقوا في تلك الأودية يكمنون في الشعاب والهضاب، واتفق أن أميراً من أصحابنا خرج متقنصاً فوقع أحدهم في قنصه، وحصل طائر منهم في قفصه، فاستغرب وجوده في ذلك المكان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الدين قايماز النجمي وأجناده إلا وقد نزلوا عليهم في آكام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحد من أولئك الضلال إلى نهج فرار، فما شعرنا ونحن على صفد للحصار،حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مقرنين في الاصفاد، مقودين في الاقياد، وكان فيهما مقدمان من الاسبتار، وقد أشفيا على البتار، فإن السلطان رحمه الله ماكان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية، فأحضرا عند السلطان للمنية، فأنطقهما الله بما فيه حياتهما، وناجيا بما به نجاتهما، وقالا عند دخولهما: مانظن أننا بعدما شافهناك يلحقنا سوء فعرفت أن بقاءهما مرجو، فمال إلى مقالهما، وأمر باعتقالهما فإن تلك الكلمة حركت منه الكرم، وحقنت منهما الدم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال. حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصوم

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ماأحكمه الكفار.

obeikandl.com

فصل

في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدوّ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا : لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانـداء، والانوار معدومة لـوجود الأنواء، وماء الشرب مفقـود مع سيـول الماء، والرواحـل في الطين باركـة وهي للعلـف تاركـة، والطريـق زلقة، وهـي مع سعتهـا ضيقة، فنقـل السلطان خيمتـه إلى قرب المكـان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجـارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصـابرتـه، ونحن نـركب إليـه من الخيـام بكرة وعشيـة للسلام، وتنفيـذ المهام، حتـى بلغ الـرجال أماكـن النقوب، وتمكـن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمـان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحـد سوى قـايماز النجمي على كـره منه، وذلـك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فـاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عـن السلطان: «مما تجدد بحضرتنـا فتح كـوكـب، وهي كـرسي الاسبتاريـة ودار كفـرهم، ومستقـر صـاحب أمـرهم، ومـوضع سـلاحهم وذخـرهم، وكـان بمجمع الطـرق قاعـداً، وللتقى السبل راصداً ، فتغلقـت بفتحه بلاد الفتح واستـوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بـلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلاصور، ولولا أن البحر ينجـدها والمراكب تردها لكان قيـادها قد أمكن وجماحها قـد أذعن، وماهـم بحمد الله في حصن يحميهـم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمـواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فـلا تعجل عليهـم إنما نعدّ لهم عـدا)(٨٤) ،وكان نـزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداويـة المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السـامي أعلـم بما كان على الإسـلام من مـؤنته المثقلـة وقضيته المشكلـة، وعلتـه المعضلة، والله تعـالى المشكـور على مـاطوى مـن كلمـة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بـلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلامـاً سلاماً)(٨٥) فـ(ادخلوها بسلام)(٨٦) وكان نزولنا على كوكـب والشتاء في كـوكبه، وقد طلـع من الأنـواء في موكبـه والثلوج تنشر على الجبال طـي ملائهـا، والأودية قـد عجت بمائهـا وفاضـت عند

امتلائها، فشمخت أنوفها سيولاً، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدوّ والزمان وقد تحرّز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها» ثم قال: «والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لايسلون عما فتحنا، ولايصبرون على ماجرحنا، وأنهم لعنهم الله أمم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)[٨٧] وماهم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية ينذرون بأن العدوّ قد أجمع أمراً، وحاول نكراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسلوا سيوفاً للبغي لايبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها، وأما نحن فبالله ندفع مانطيق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ماله دعينا، ونؤمل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، ونرجو أن يمدنا بنفسه سريعاً وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبيها دعوة إما أن يطيع بها ربه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار،والجنة الجنة فإنها لاتنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمة الهمة، فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنة ننزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المظفر تقي الدين على

اطرابلس، ويستقرّ الركاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدوّ أنها تطرق، وأن الطلب على مصر والشام منه يفرق، ولاغنى عن أن يكون المجلس السيفي بحرا في بلاد الساحل يزخر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم إلا العظيم، ولايرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم، هذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانرتاب بأن الله تعالى مافتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفر المناطر، فإنما هي سفرة قاصدة. وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن لهم مع عمهم عماً».

وله إليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: «المولى على حسب اختياره إن سار فمثله من سار وسر، وقاد الجيش وجرّ، ونفع الولي وضر العدوّ الذي أضر، وإن أقام فالعذر الذي أقعده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، ولايخف استقصار عزمه إن ركد أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، ووده ودّه، وله من اللسان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيه: « والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقد، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال علي، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لامجيب لهم ولاداع تفرّقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاءفانحلوا، ثم أخذوا ووقذوا، واعتقلوا ولم يستنقذوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه،كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مالك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلّا جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصدّ وافداً ،وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

فلا يضجرنك ازدحام الوفود
عليك وكثرة ما تبذل
فانك في زمن ليس فيه
جواد سواك مفضل
وقد قل أهله المنعمو
ن وقد كثر البائس المرمل
وما فيه غيرك من يستما
ح وما فيه إلاّك من يسأل(٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوّا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي:«وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لها ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

الرقعة ذكـر الجمال الخيفي، وكأنه كـان له مثل حاجـة الجويني، رحم الله الكل أجمعين.

obeikandl.com

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال،وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينة، والوزير يومئذ معز الدين بن حديدة، يأمر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر، فاستقبله السلطان وأولاده وأمراؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي، فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب. وهو الذي كان فوق القبة بالصخرة المقدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحاس وقد طلى بالذهب، فجعل يداس بالأرجل ويبصق الناس عليه، وذلك في سادس عشر ربيع الآخر، كذا قال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدّة في سنة احدى وستمائة، وأراده على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين، وتولى بعده فأقام نحو تسعة أشهر ، وتلقب بالظاهر، ثم توفي وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهوالخليفة الآن، والله المستعان.